# عبد الحميد العبادى

## مؤرخ الحياة السياسية فى الإسلام

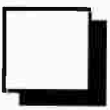

**بين الأصوات الصادقة.. التى ارتفعت عبر تاريخنا الثقافى معلنة عبقرية تاريخنا الإسلامى.. صوت المؤرخ عبد الحميد العبادى.. مؤكداً فى كل ما قاله أو كتبه أن هناك حضارة حقيقية للإسلام.. لها مقوماتها ودعائمها من حقنا كورثة لهذه الحضارة أن نعرف عنها الكثير.**

وإذا كنا فى حاجة إلى معرفة أكثر. لصاحب هذا الصوت الصادق.. فبكلمات سريعة نسجل أن هذا المؤرخ ينتسب إلى جيل الرواد، وأنه ثالث ثلاثة (طه حسين وأحمد أمين وعبد الحميد العبادى) اتفقوا فيما بينهم على دراسة التاريخ الإسلامى، ثم إعادة كتابته، على النحو الذى يجلى صفحات كثيرة منه.. هى فى الأصل مشرقة وعظيمة إلا أن طرق التناول أخفت الكثير من معالم إشراقها وعظمتها. وهم بذلك يحققون أهدافاً كثيرة لعل فى مقدمتها اثنان. ففضلاً عن إظهار حقيقة تاريخنا الإسلامى المجيد، فإنه فى الوقت نفسه يقدم الدليل بعد الدليل على عظمة هذا التاريخ الإسلامى، الذى استهدف مع الدين الذى يمثله لهذه الهجمة الضارية فى عشرينيات هذا القرن وثلاثينياته، فيدفعون عن هذا الدين وتاريخه الكثير من الأباطيل والافتراءات.. التى يروجها من لهم مصلحة فى ذلك.

وهذا هو الدكتور طه حسين يعلن عن هذا التضامن بين الثلاثة فى تقدمته لكتاب «فجر الاسلام» للأستاذ أحمد أمين. فبعد أن يعرض للأسباب التى دعتهم للكتابة يقول: «وثلاثتنا متضامنون فى الكتاب على اختلاف أقسامه، وقد استقل أحمد أمين بدرس الحياة العقلية، ولكنه قرأه معنا وأقررناه كما أقره، فنحن شريكاه فيه على هذا النحو. واستقل عبد الحميد العبادى بدرس الحياة السياسية، ولكنه قرأه علينا، وأقررناه كما أقره، فنحن شريكاه على هذا النحو..».

والحق أن للمسلمين حياة سياسية.. إبّان القرن الأول الهجرى وما بعده من قرون، والتاريخ لهذه الحياة السياسية التى تولى مسئولياتها عبد الحميد العبادى ليست بالعبء القليل، فهى كما ذكر عميد الأدب العربى طه حسين ـ فى تقدمته لكتاب فجر الإسلام ـ ليست بأقل تعقيدًا من الحياة الأدبية التى تولى هو تسجيلها، فللعرب بعد الإسلام فى هذا القرن سياسة خارجية دقيقة وعويصة فى نفس الوقت، ولهم أيضًا سياسة داخلية مشتبكة الأطراف متشعبة الأنحاء، وكلتا السياستين الخارجية والداخلية متأثرة بمؤثرات منها العربى، ومنها الأجنبى.. منها ما كان قبل الإسلام، ومنها ما طرأ بعد الإسلام. ولهذا فإن تعقب كل هذه الجوانب السياسية ورصدها.. بصورة أمينة وموضوعية تحتاج إلى جهد كبير فى الاستقصاء والتحليل، وليس هذا الجانب من التاريخ للإسلام بأقل حاجة إلى العناية والاهتمام والدرس.. من حاجة الحياة العقلية أو الحياة الأدبية. وسنرى كم كان جهد عبد الحميد العبادى فى هذا المجال كبيرًا.. سواء فيما تركه من آثار مكتوبة، أو فيما تركه من أسلوب ومنهج لدراسة الجانب السياسى بالإسلام فى تلاميذه الذين تعلموا على يديه.. كيفية التعامل مع المادة التاريخية.

وللحقيقة أن هناك من تلاميذه ممن كانوا يوجهون بالأمس ويوجهون اليوم حياتنا العلمية داخل الجامعات والمعاهد العليا.. قد اعترفوا بفضل هذا المؤرخ الكبير.. الذى عاش حياته ومات وهو عزوف عن الشهرة والمجد الرخيص. وفضّل عليهما الانصراف إلى علمه وتلاميذه فى الجامعات المصرية المختلفة التى كانت موجودة فى ذلك الوقت (حتى عام ١٩٥٦م وهو عام وفاته)، فأثر فى الكثيرين أساتذةً وطلابًا. وليس أدل على ذلك من أن شيخ المؤرخين المعاصرين الدكتور أحمد عزت عبد الكريم، كان (رحمه الله) يعلن تأثره بالأستاذ العبادى، على الرغم من أن الدكتور أحمد عزت عبد الكريم كان من مدرسة تعنى بدراسة التاريخ الحديث، وهى مدرسة غير تلك المدرسة التى كان شيخها العبادى وأستاذها تعنى بدراسة التاريخ الإسلامى.

كما تأثر به تأثيراً مباشراً عدد من أساتذة التاريخ الإسلامى فى جامعاتنا، أذكر منهم ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ الدكاترة: محمد مصطفى زياد، محمد عبد الهادى شعيرة، وإبراهيم أحمد العدوى، جمال الشال. . وكلهم يعترفون بفضله العلمى عليهم[1] وهذه ـ على أى حال سمة طيبة تحمد عليها حياتنا العلمية بوجه عام.

والآن هل نحن فى حاجة إلى معرفة الكثير عن عبد الحميد العبادى المؤرخ الكبير الذى عاش ومات فى صمت؟ هل نحن فى حاجة إلى التعرف عليه خصوصًا وأنه لم يعن كبقية أفراد جيله من الرواد بكتابة سيرته الذاتية أو حتى ذكريات حياته، كما لم يعن أحد ـ وأرجو أن ينسب التقصير إلى متابعتى وليس لجهود تلاميذه وهم والحمد لله من العلماء الأجلاء الذين يحملون القلم ـ بكتابة ترجمة لهذا الرجل لا تعطيه أكثر من حقه، وتوضح دوره فى تاريخنا العلمى والثقافى بوجه عام؟. . هل نحن فى حاجة إلى الاقتراب من عالم هذا المؤرخ؟ خاصةً وأن هذا الاقتراب يكلف المرء مشقة البحث عما يعمق دور هذه الشخصية فى تاريخنا الثقافى والأدبى، وذلك من خلال تتبع صفحات قليلة فى مقدمة كتاب له من كتبه، أو حتى كتاب آخر هو فى الأصل محاضرات كان قد ألقاها على طلابه فى جامعة عين شمس، واهتم أحد هؤلاء الطلاب وهو الأستاذ إبراهيم الشريف بجمع هذه المحاضرات وإعدادها للنشر بعد أن راجعها الدكتور مختار العبادى على اعتبار أنه ابن شقيق المؤرخ الراحل. . هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية قدم أحد لهذا الكتاب هو الدكتور جمال الدين الشيال، إلى جانب كلمة كان قد ألقاها زميله المجمعى الأستاذ إبراهيم مصطفى يوم استقباله عضوًا بمجمع الخالدين، أو حتى فى السطور التلغرافية التى كتبها زميله الآخر بمجمع الخالدين الدكتور محمد مهدى فى كتابه «المجمعيون».

ربما نكون فى حاجة للتعرف على شخصية هذا المؤرخ الذى اعترف بفضله

الكثير. ولن تكون لنا مراجع فى تعرفنا عليه غير هذه السطور والصفحات المتفرقات.

ولذلك فإن هذه الصفحات التى تحاول أن تلتزم بإطار المنهج الذى اختطته بقية صفحات الكتاب تحاول أن تلقى ضوءًا على هذه الشخصية راجية أن يسعفها عون الله سبحانه وتعالى.

وبادئ ذى بدء.. يمكن القول ـ ونحن فى صدد تعرفنا على شخصية عبد الحميد العبادى ـ إن الظروف هيأت لمصر، بل للعالم العربى والإسلامى مؤرخًا إسلاميًا، مكنته تربيته ونشأته من الاتصال بلغته العربية اتصالاً كافيًا، كما أتاحت له الاتصال باللغات الأوربية: الإنجليزية والفرنسية والألمانية أيضًا. ومكنته اتصالات بأساتذة الجامعة فى هذه الحقبة أن يرسم منهجه فى البحث، ويقوم طريقته فى الدرس، هذا إلى مواهب قوية، وطموح غير مغرق، فاستوى ـ كما شاءت الآمال ـ لأن يكون هذا المؤرخ صاحب المدرسة فى التاريخ.

كان العبادى قد وجهه أبوه إلى تعلم القرآن الكريم ناشئًا. وأعجب ما فى هذا الأمر أنه كان يحفظ القرآن الكريم حفظ الشيوخ، ويجوده تجويدهم، ولو شاء وضع يده على خده ورفع بالقرآن صوته، وكان مقرئًا مجودًا مجيدًا يسامى أكبر قراء القرآن.

ولم يكتف أبوه بهذا القدر من التعليم الدينى لابنه، وإنما صرفه إلى التعليم المدنى. فأنهى الابن تعليمه الابتدائى والثانوى، وكان لابد أن يواصل تعليمه العالى. فغادر مسقط رأسه الإسكندرية متوجهًا إلى القاهرة حيث التحق بمدرسة المعلمين العليا، التى تخرج منها عام ١٩١٤م، ليعمل مدرسًا بالمدارس الثانوية. وفى نفس الوقت كان يدرس فى الجامعة المصرية القديمة، وكان فى هذه الجامعة وأمام عدد من العلماء المستشرقين.. هو الطالب المثالى الذى استكمل للبحث وسيلته، والذى فهم النصوص العربية وانتفع باللغات الأوربية، ورفع ذلك من قدره فى أعين زملائه، وقربه إلى أساتذته.

والجدير بالذكر أن العبادى عقد أواصر الصداقة مع نخبة ممتازة، من أبناء المدارس العليا، فى مقدمتهم: الأستاذ أحمد أمين، ومحمد فريد أبو حديد، وأحمد حسن الزيات، وأحمد يوسف الجندى، وأمين مرسى قنديل.. والدكاترة: عبد الوهاب عزام، وأحمد زكى، وأحمد عبد السلام الكردانى، وغيرهم من أبناء المدارس العليا الذين جمعت بينهم عوامل كثيرة من الألفة والصداقة والمشاركة فى الميول والأحاسيس والآمال والأهداف، وكانوا وقتها من عشاق المعرفة ومحبى البحث والاطلاع، وأصبحوا فيما بعد رجالاً روّاداً مثّلوا الطلائع فى ميادين النهضة الثقافية والعادية.

هؤلاء النفر من شباب مصر فى ذلك الوقت كانوا يجتمعون فى منزل واحد منهم، وتدور بينهم مناقشات موضوعها الأوحد مصر ووسيلة النهوض بها، وانتهوا إلى التفكير فى إنشاء لجنة لوضع كتب علمية وثقافية، يساهمون بها فى إرساء النهضة الفكرية المصرية على أسس سليمة. كانت هى لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩١٤م، كأول لجنة[٢] مصرية ثقافية يكتب لها التوفيق والبقاء والاستمرار، وتظل سنوات طويلة هى مصدر الإشعاع الفكرى الواسع المدى، لا فى مصر وحدها، بل فى العالم العربى والإسلامى كله، ويكون العبادى واحداً من مؤسسى هذه اللجنة، بل لقد كانت الاجتماعات الأولى التى تمخضت عنها، تعقد فى منزله، بل ونراه فيما بعد يسهم فى نشاطها الفكرى بعدد من الكتب كانت كلها من مطبوعات هذه اللجنة، فى مقدمتها كتاب «علم التاريخ» لهرنشو.. الذى ترجمه عن الإنجليز، وأضاف إليه فصلاً قيمًا عن التاريخ عند العرب.

ولم يكن اتصال العبادى بالثقافة والعلوم، بمرحلة دراسته فى المدرسة العليا للمعلمين أو الجامعة المصرية القديمة فى القاهرة، بل كان اتصاله قبل ذلك فى الإسكندرية حيث نشأ أول غرام بينه وبين الكتب، والشعر العربى القديم خاصة، فكانت منتديات الإسكندرية الأدبية تشهد نشاطه مع عدد من لداته من أدباء الثغر

وشعرائه، من أمثال: عبد الرحمن شكرى، وإبراهيم مصطفى، وعبد اللطيف النشار، وغيرهم من الشعراء الفحول، والنحويين المعروفين، بل وكان العبادى شاعرًا له فى ميدان الشعر فى هذه الفترة المبكرة من حياته جولات.

ويضاف إلى غرامه بالكتب غرامه باللغة العربية، فقد كان الطلبة الذين تعلموا تعليمًا شرقيًا عربيًا خالصًا يفخرون بحظهم من اللغة وحفظهم لنصوصها وتمرسهم على فهمها، ويسعون فى الوقت نفسه لاستكمال ما نقصهم من تعلم اللغات الأوربية.

والذين تعلموا فى المدارس المدنية يزهون بما عرفوا من اللغات الأوربية، ويعملون على استكمال ما نقصهم من الاتصال باللغة العربية، إذ كان مرجع البحث إلى نص متونها. وكان العبادى بين هؤلاء وأولئك عجبًا. حيث استوفى حظه من اللغات الأوربية، لأنها من أسلوب تعليمه، ولأنه كان طالبًا بمدرسة المعلمين العليا، ثم كان فى اللغة العربية واسع المعرفة دقيق الفهم، جدلاً فى قواعدها النحوية، وكان كثير الرواية للشعر ولحفظ المأثور.

وقد عاونه ذلك الغرام بالكتب وباللغة العربية واللغات الأوربية فى منهجه العلمى بعد ذلك كما سنرى، حيث بدأ حياته العملية كما أعد لها.. مدرسًا ببعض المدارس الثانوية. ولكن الأمر لم يطل، فقد احتيج إلى مدرس للتاريخ الإسلامى بمدرسة القضاء الشرعى، وكانت من المدارس العالية المرموقة، وكان ناظرها وأبو نشأتها المرحوم عاطف بركات شديد التحرى فى اختيار أساتذتها، وقد أهّلت ثقافة العبادى العربية الإسلامية والأجنبية أن يملأ هذا المكان الذى كان يملأه فيما قبل إمامان للتاريخ، هما: «على فوزى، ومحمود فهمى»، فكان انتصارًا للشباب وفوزًا للعلم.

وتتلمذ عليه فى مدرسة القضاء الشرعى، عددٌ ممن تولوا قيادة الفكر فى مصر بعد هذا، فى مقدمتهم: الدكتور عبد الوهاب عزام، والأستاذ أمين الخولى.

ثم انتقل العبادى بعد ذلك أستاذًا للتاريخ الإسلامى بمدرسة دار العلوم

وعندما أنشئت الجامعة المصرية الحديثة فى عشرينيات هذا القرن دعت العبادى لكى يكون واحدًا من أعضاء هيئة تدريسها، كأستاذ للتاريخ الإسلامى فكان خير هدية من الجامعة المصرية القديمة (الأهلية)، إلى الجامعة المصرية الحديثة (الأميرية).

على أن طموح العبادى العلمى، ونهمه للثقافة لم يتوقفا بعد، فقد رأى أن يدرس القانون. وكلفه ذلك عناءً جديدًا، وأى عناء أشد من أن يتحول المدرس إلى طالب، يدرس فى كلية الحقوق وينال الليسانس، ويجعل من هذه الدراسة القانونية عدادًا جديدًا فى دراسته للتاريخ بوجه عام.

وعند إنشاء جامعة الإسكندرية فى سنة ١٩٤٣م.. يدعى العبادى ليكون عميدًا لكلية الآداب، ورئيسًا لقسم التاريخ بها، وأستاذاً للتاريخ الإسلامى. ويظل فى هذه المناصب العلمية، حتى يحال إلى المعاش عام ١٩٥٢م. ولكنه ظل كعادته موفور النشاط، دائم الاتصال بالعلم والثقافة، فكان يلقى محاضراته فى جامعة عين شمس، ومعهد الدراسات العربية.

ويقول عنه تلميذه الدكتور جمال الدين الشيال[٣]: «وقد بدأت أتتلمذ عليه منذ نحو عشرين سنة (تاريخ هذا القول عام ١٩٥٨م) ثم كنت أقرب تلاميذه إليه.. كنت أحبه وأقدره، وكان يبادلنى حبًا بحب وتقديراً بتقدير، وأشهد أنه كان ـ رحمه الله ـ الأب الرحيم لكل تلاميذه والعاملين معه، يعطف عليهم، ويوجههم الوجهة الطيبة، وقد تخرج على يديه المئات بل الألوف أجيالاً بعد أجيال من التلاميذ، وليس من بينهم إلا من يذكره بالخير والاحترام والتقدير، يعرفون له علمه الغزير، ويقدرون له روحه السمحة، وخلقه الكريم، وأسلوبه العف وهدوءه الوقور، واتزانه الحكيم..

ولعل هذه الصفات التى امتاز بها العبادى، جعلته مؤرخًا له تقديره ليس فى الأوساط العلمية بمصر وحدها، وإنما أيضًا خارجها حيث نال الكثير من التقدير، فقد عرف له المؤرخون الأوربيون وكبار المستشرقين مكانته وعلمه، فكانت

دراساته التاريخية موضع ثقة وتقدير. ولهذه السمعة العلمية اختير عضوًا بالمجمع العلمى العربى بدمشق، وأستاذًا منتدبًا فى دار المعلمين العليا ببغداد، كما ندب فى بعثة علمية إلى إستانبول ليتخير من نفائس الكتب المحبوسة بها. وكان معه الأستاذان أحمد أمين وعبد الوهاب عزام، وقد فتحت لهم الأقباء التى قبرت فيها الكتب الإسلامية، ونشروا منها آثارًا عظيمة القيمة، كما زار إسبانيا لدراسة الآثار الأندلسية، ولا غرو فقد كان العبادى أول من أدخل دراسة تاريخ المغرب والأندلس فى الجامعات المصرية، وأسهم فى تمثيل مصر عدة مرات فى مؤتمرات علمية دولية فى إيران وفرنسا وإسبانيا.

وقد أدرك مجمع الخالدين مكانة العبادى العلمية كمؤرخ وأديب فى نفس الوقت، فانتخبه عضوًا به، وكانت له بحوثه المجمعية القيمة التى تزخر بها أعداد من مجلة المجمع. وبالطبع كان عضوًا بمجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية عند تأسيسها، وظل يسهم بنشاط ملحوظ للنهوض بهذه الجمعية حتى إذا اشتد به المرض قدم استقالته من الجمعية.

وللعبادى مدرسة تاريخية قويمة المنهج تلاميذها ظاهرون من كل جهة درس بها، وله مذكرات يتداولها طلبته ويؤلفون منها أو يؤلفون على مثالها، وآراؤه فى التاريخ تنتظر، ويستمع إليها ويتناقلها الباحثون، ولكنه على هذا قليل التأليف، ضنين بالنشر ضنًا يكاد يكون عن اصرار ورأى.

وفى هذا الصدد يروى لنا زميله المجمعى عالم النحو إبراهيم مصطفى واقعتين تشيران إلى قلة إنتاجه من الكتب بالقياس إلى أبناء جيله من الرواد[٤]. أما الأولى فيرويها قائلاً: «شهدت يومًا كاملاً كان يراد للأستاذ العبادى أن يرقى فيه من أستاذ مساعد إلى أستاذ، وذلك يستوجب أن يكون قد نشر كتابًا فى المدة بين الترقيتين، وود أصدقاؤه ومحبوه لو حمله ذلك على نشر بعض ما لديه من بحوث مكتوبة، ولكنه أبى على أصدقائه أمنيتهم، ورقى لأن مثل الأستاذ العبادى فى إمامته لا ينتظر منه بحثًا أو شهادةً أو كتابًا».

والثانية يرويها قائلاً: «ولا أعرف سبب اصراره على الضن بالنشر، فذلك رأيه الخاص، ولكن الذى أستطيع أن أقدره أنى أعرف أن الأستاذ العبادى عظيم التروى، شديد التثبت عظيم الشك أيضًا. وقد يرسل المقالة إلى مجلة لتنشر، فإذا ما جمعت فزع إلى التليفون يرجو ألا تنشر، لأنه يريد أن يتحقق من رقم فيها، فلا تنشر».

وسبب ثالث: لقلة إنتاجه من الكتب نستشعره من رأى تلميذه الأستاذ إبراهيم الشريف الذى أعد للنشر كتاب «المجمل فى تاريخ الأندلس» للعبادى.. هو فى قدرة العبادى نفسه على ارتجال محاضراته، فلو كانت هذه المحاضرات مكتوبة ـ كما هى العادة ـ لأصبح من السهل دفعها إلى المطبعة لتصبح بعد ذلك كتبًا تضاف إلى إنتاجه، وفى هذا[٥] يقول: «لم يكن العبادى يلقى محاضراته مكتوبة، وإنما كان يرتجلها ارتجالا. وطبيعة الارتجال غير طبيعة الكتابة، فالأسلوب فى الارتجال غير متناسق لما قد يتخلله من أساليب قد تكون بالعامية. وما يعرض من استطراد قد يخرج من صلب الموضوع، ومع ذلك كنت أعجب بجمال أسلوبه الرزين وذوقه الأدبى الممتاز، وتصويره الرائع البسيط لما يصوره من حوادث التاريخ الإسلامى، وما يرسم من شخصياته، وكان يأخذنى منه ـ على الخصوص ـ ما كان يبعثه فى القارئ من تصور للأجواء التى كانت تعيش فيها الحوادث التى يتحدث عنها، والأشخاص الذين يترجم لهم».

وعلى الرغم من تواجد هذه الأسباب وغيرها.. إلا أنه ظل حريصًا على العطاء المخلص بأى وسيلة كانت.. حتى آخر لحظة من حياته، سواء فى محاضراته المرتجلة بالجامعات المصرية، أو فى مشاركته الفعالة فى معظم اللجان التى كانت تبنى السياسة التعليمية والثقافية فى الجامعات، أو حتى فيما يقدمه من إنتاج ضنين كان آخره كتاب «العنصرية والإسلام»، حيث قامت بطبعه هيئة اليونسكو، كما حقق جزءًا من كتاب «أنساب الأشراف» للبلاذرى، وراجع كتاب «الحضارة الإسلامية» لجرونباوم.

لكن كيف كوّن العبادى مدرسة تاريخية قويمة التقاليد؟ أو بمعنى آخر ما هو المنهج الذى اتبعه فى تناول المادة التاريخية؟

إن ملامح هذا المنهج الخاص بالعبادى تبدو من رأى الدكتور جمال الدين الشيال[٦]، حيث يقول: «لقد كان التاريخ الإسلامى قبله (أى قبل العبادى) رواية تروى أو قصيدة تحكى، أو نكتة تقال، أو بيتًا من الشعر ينشد. . وكان العبادى أول من ارتفع به إلى مرتبة العلم، فجعله فكرةً تمحص، وتحليلاً، ونقدًا، ومقارنةً، ودراسة دقيقة على أسس ومذاهب علمية ثابتة. فإذا كان فى مصر اليوم من يفهم التاريخ الإسلامى حق فهمه، ومن يجيد بحثه ودراسته، فإن الفضل الأكبر فى هذا إنما يرجع إلى العبادى وطريقته وجهوده».

وهذا التاريخ الإسلامى الذى أسس له العبادى مدرسة ينبغى أن تتصل دراسته بالأدب والشريعة، وبموجات الحياة العربية والإسلامية، وبواعث هذه الموجات من عقيدة ورأى وأدب، وهذه الإمكانيات جميعها متوفرة لدى العبادى ـ كما رأينا منذ قليل من غرامه للكتب وللشعر وللغة، ومن استكمال ثقافته بدراسة القانون وحصوله على ليسانس الحقوق ـ مما يجعل من اليسير أن يكون لهذا الرجل الموهوب ـ كما وصفه تلميذه الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة بأنه أستاذ موهوب جمع بين الأدب والتاريخ فى آن واحد ـ أسلوبًا متميزًا، وله من الأدب جمال الصورة وروعة الأسلوب وله من التاريخ منهجه العلمى الدقيق، يسنده دائمًا ويدعمه فيما يرسم من صور التاريخ أساس تاريخى عتيد، مبنى على قراءات واسعة مستفيضة وافرة الحظ من الإجادة والإتقان، أعانه عليها ذوقه الأدبى الممتاز، فهو يحفظ بعضها عن ظهر قلب ويتمثله حيًا، ويزيد عباراته جمالاً، لكنه لا يتركه يثقل من سرده التاريخى القوى البناء، ثم هو حريص على تجنب التفاصيل التى قد تشوه الصور التاريخية أحيانًا وتذهب برونقها ووضوحها.

ولهذا المنهج أو الأسلوب الذى استحدثه العبادى يتفق تلاميذه، وأغلبهم من أساتذة التاريخ وعلمائه[٧]، على أنه صاحب مدرسة جديدة فى التاريخ الإسلامى

خرجت به عن طريقته القديمة فى الرد والجمع، كما تجاوزت به ذلك التقدم البراق الذى عرض له فى القرن التاسع عشر على يد الكتّاب الغربيين وبعض المؤرخين الشرقيين، والذى لم يكد يغير إلا من مظهره فحسب، بما أدخل عليه من تنظيم الوقائع، وتبويب بعضها بالقياس إلى بعض فى أسلوب أخاذ، وإن كان عاطلاً فى كثير من الأحيان عن التعمق وفهم النصوص.

فللأستاذ العبادى طريقة علمية دقيقة أعانته عليها ملكاته القوية، فإنه يجمع إلى قوة النقد وطرافة الاستنباط، فطرة سليمة تجعله يسعى إلى فهم كل شىء، وقدرة ممتازة على فهم النصوص، وإدراك أساليب اللغة وفهم دقيق لمعانيها[٨].

وبالجملة فقد اكتملت للعبادى ـ كما يتفق تلاميذه ـ العدة والوسيلة فعالج التاريخ الإسلامى على نحو خرج به عن نطاق السطحية والرد، والأساليب الخطابية الجوفاء، إلى مدرسة المنهجية، والتعمق فى سبر غور الحوادث والوصول إلى أصولها، واستنباط نتائجها مع تصوير أجوائها تصويرًا يعين على فهمها وتمثلها.

وبهذا المنهج القائم على الدقة والتثبت، والتعمق والاستنباط، قدم عبد الحميد العبادى إنتاجًا فكريًا محترمًا، وهذا الإنتاج ـ كما عرفنا ـ إما مباشر ملموس وهو ما نجده فى كتبه، وهذه الكتب إما مؤلفة، أو مترجمة، أو محققة، وفى مقدمتها: كتب «صور وبحث من التاريخ الإسلامى» الذى ظهر فى جزأين، الأول: «الجمل والمجمل فى تاريخ الأندلس»، وهو فى الأصل محاضرات كان يلقيها بجامعة عين شمس، حيث قام عدد من تلاميذه بجمعها وإعدادها للنشر وراجعها ابن شقيقة الدكتور مختار العبادى، والثانى: «الدولة الإسلامية تاريخها وحضارتها»[٩]، وهو كتاب يشترك فى تأليفه مع اثنين من تلاميذه، هما: الدكتور مصطفى زياد، والدكتور إبراهيم أحمد العدوى. وقد وضح الدكتور زياد فى مقدمة الكتاب أستاذية العبادى لجيله، وكتاب «علم التاريخ» لهرنشو، الذى ترجمه وأضاف إليه فصلاً عن التاريخ عند العرب،

وكتاب «أدب الأندلس وتاريخها» تأليف ليفى بروفنسال، ترجمة تلميذه الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة ومراجعته، وكتاب «الحضارة الإسلامية» لجروبناوم، وترجمة الأستاذ عبد العزيز جاويد ومراجعته، وكتاب «العنصرية فى الإسلام» الذى ألفه فى أعوام حياته الأخيرة، كما حقق «أنساب العرب» للبلاذرى، ونقد النثر لابن قدامه.. وغيرها من الكتب والدراسات والأبحاث.

لكن إنتاجه الفكرى الأكبر هو ذلك الإنتاج غير المباشر، والذى تركه فى نفوس تلاميذه ومدرسته التاريخية من بعده.

فمثلاً.. حين نتتبع فكرته الإسلامية فى كتاب «صور وبحوث من التاريخ الإسلامى»، يستوقفنا فصل عن علاقة مصر بالعالم، نجده يقول: «لم تكن مصر فى نظر العرب عندما أقدموا على فتحها فى سنة ١٨هـ كغيرها من الأقطار التى فتحوها فى نهضتهم العظمى، بل كان لها فى أخيلتهم وخواطرهم مكانة ممتازة لا تشبهها إلا مكانة قطر آخر هو الشام. ذلك بأن القرآن الكريم ذكر مصر فى مواضع عدة ذكرًا كريمًا.. تارة بالتصريح وأخرى بالإشارة والتلميح، فمن ذلك قول القرآن الكريم مخبرًا عن فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِيَ﴾(١٠)، وقوله مخبراً عن يوسف (عليه السلام): ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾(١١)، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾(١٢)، وقوله: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾(١٣)، وقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(١٤).

وكما اشتمل القرآن على جملة آيات فيها تنويهٌ بقدر مصر وخطرها وثرائها، فإن السنة ذكرت مصر ونوهت بأهلها خاصة لأسباب وردت فى قصص الكتاب المقدسة، من ذلك ما يروى من أن النبى ﷺ قال: (إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرًا فإن لهم ذمةً ورحمًا)، وفسروا رحمًا بأن هاجر أم إسماعيل عليهما كانت مصرية وأنها ولدت لإبراهيم ولده إسماعيل الذى هو أصل عرب الحجاز، فكان القبط أخوال العرب الإسماعيلية إذا أخذنا بنظرية النسب العربية.

والمعروف من التاريخ المقدس أن مصر دخلها غير واحد من الأنبياء والرسل، قدمها إبراهيم الخليل ودخلها يعقوب وابنه يوسف وإخوته، وفيها ولد ونشأ موسى (عليه السلام)،ومنها خرج بنو إسرائيل، كما دخلها عيسى وأمه مريم (عليهما السلام).

فإذا ما صرنا إلى أخبار عرب الجاهلية وجدنا أن مصر كانت متجراً لهم تحمل إليهم منها فيما يحمل من الثياب المعروفة بالقباطى، جمع قبطية وقد ورد ذكرها فى الشعر القديم.

كل هذه الذكريات المستمدة من المصادر التى ذكرنا كانت تجول بخاطر العرب عندما أقدموا على فتح مصر، فلما تم لهم فتحها فعلاً واختلطوا بأهلها، وعاينوا نيلها العجيب وتربتها الخصبة وخيراتها الوافرة وآثارها الرائعة، ووضعها الجغرافى الفريد، ووداعة أهلها وانصرافهم إلى العمل والتكسب بالزراعة والصناعة والتجارة، كل ذلك جعلهم يرون أنه قد صدق الخبر، فانطلقت ألسنتهم تشيد بمصر وخيرات مصر ونيل مصر وعجائب مصر وجعلوها «جنة الدنيا وكنانة الله فى أرضه»، وقالوا: «من أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر إلى مثله فى الدنيا فلينظر إلى أرض مصر حين تحفز زروعها وتنور ثمارها».

ويجلو العبادى الحوادث التى شاركت مصر فيها الدولة الإسلامية من قيام الخلافة إلى آخر العصر الأول، ويركزها فى ثلاثة ميادين كبيرة: «ميدان الفتوح الحربية»، و«ميدان الأحداث السياسية»، و«ميدان الحركة الفكرية».

وحين يحدثنا العبادى عن إسهام مصر فى الفتوح الحربية يقول: «كان العداء مستحكمًا ومتصلاً بين الدولة العربية الناهضة والدولة البيزنطية طوال العصر المذكور. وكان الروم يحاولون إرجاع ما فقدوا من أملاكهم فى آسيا وإفريقيا، وكان العرب من ناحيتهم مضطرين إلى صد هذا العدوان، ولقد وقع عبء قتال الروم فى ذلك العهد على الشام ومصر، واضطلعت مصر بنصيبها من هذا العبء اضطلاعا رائعًا، كما كان لها أثر فى مد نطاق الدولة العربية غربًا وجنوبًا وشمالاً بمحض جهودها ومواردها. إن مصر كانت فى نظر الخلفاء باب المغرب والوسيلة

إليه، يعولوا عليها فى فتحه وبسط سلطانهم عليه، لذلك نجد عمرو بن العاص غداة توليه أمر مصر يكر على «برقة» فيستولى عليها سنة ٢٢هـ، ويتبع ذلك بالاستيلاء على طرابلس سنة ٢٣هـ، ثم يستأذن الخليفة عمر بن الخطاب فى غزو إفريقيا فلا يأذن له على عادته من التمكث والتريث إزاء المشروعات الخطيرة، ولكن عثمان بن عفان يطلق يد عبد الله بن سعد عامله الجديد على مصر فيجتاح إفريقيا، ثم يأتى عقبة بن نافع فيؤسس مدينة القيروان ويكتسح شمال إفريقيا، كل ذلك بجيوش مصر وموارد مصر، نعم.. إن فاتحى المغرب من بعد عقبة وخاصة حسان بن النعمان وموسى بن نصير، قد مكنوا للدولة العربية فى المغرب حتى سواحل المحيط بجيوش عربية غير مصرية. ولكن مصر كانت دائمًا ردءًا لهم تساعدهم بأسطولها ورجالها. وحتى الأندلس النائية فقد اشترك جند مصر فى تهدئة أحوالها ضمن حملة «كلثوم بن عياض القشيرى»، ونزل هذا الجند المصرى كورة تدمير التى سميت «بمصر» إشارة إلى أن الجند الذى نزلها أصله من مصر.

هذا فى الغرب.. أما فى الجنوب فقد غزا عبد الله بن سعد بن أبى سرح بلاد الأساود سنة ٣١هـ ويريدون بها النوبة، وكانت الحرب عنيفة استبسل فيها العرب والسودان، فجنح ابن أبى سرح إلى السلم، لما رأى من شجاعة السودان وبراعتهم فى الرماية فى الوقعة المعروفة بيوم دمقله، فعقد بينه وبينهم هدنة على شروط معينة.

أما فى الشمال فكان هدف الدولة الأموية الاستيلاء على القسطنطينية والقضاء على الدولة البيزنطية، وكان معاوية بن أبى سفيان حريصًا على إدراك هذه الغاية، وتوسل إلى ذلك بإنشاء بحرية عربية قوية فى سواحل الشام، والاستعانة بالأسطول المصرى والاستيلاء على جزائر البحر الأبيض الشرقية، وافتتح معاوية برنامجه سنة ٢٨هـ بالاستيلاء على قبرص، ثم كانت الوقعة المعروفة بذات الصوارى سنة ٣٤هـ فى أواخر عهد عثمان سنة ٣٤هـ. قالوا: إن الإمبراطور قسطنطين سار فى أسطول ضخم يريد به إرجاع ما فقد.. إما الشام أو مصر، فسارع الأسطولان الشامى والمصرى إلى لقائه، وكانت الوقعة بين الفريقين على

الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى فانتصر المصريون انتصارًا حاسمًا، ودمر الأسطول البيزنطى، وعاد الإمبراطور مغلولاً فقتله بعض أتباعه بجزيرة صقلية جزاء على تلك الهزيمة الشنعاء. وفى سنة ٤٤هـ أغرى معاوية الأسطول الشامى جزيرة رودس، واشترك فى الغزو الأسطول المصرى بقيادة عقبة بن عامر ففتح رودس عنوة، وفى عام ٤٩هـ كانت الحملة العظيمة التى أعدها معاوية لغزو القسطنطينية، وغزا فيها ابنه يزيد وعدد من الصحابة فيهم أبو أيوب الأنصارى.

وعن الأحداث السياسية يقول العبادى: «من ذلك نرى إلى أى حد أسهمت مصر فى حركة الفتوح الإسلامية الكبرى، فقد قامت فيها بدور كان حاسمًا فى أمر المغرب والسودان، بالإضافة إلى الحروب العربية البيزنطية. وقد جرت مصر فى ذلك على المألوف من تاريخها قديمًا وحديثًا. ففى وسعها كلما تهيأت الأسباب أن تصبح قوة من قوى البحر المتوسط يحسب لها فى الميزان الدولى كل حساب.

ولم يكن ممكنًا أن تظل مصر وقد اتضحت مكانتها فى الفتوح الكبرى، بمنأى عن مجرى الأحداث السياسية والانقلابات التى رجت الدولة الإسلامية رجًا عنيفًا. والحق أننا نلحظ أثر مصر بارزًا فى أشد هذه الحوادث وأحرجها».

ويسجل العبادى لدور مصر فى الفتنة الكبرى، ودورها فى الثورة العلوية على بنى العباسى سنة ١٤٤هـ، ودورها فى الحرب التى قد وقعت بين الأمين والمأمون، وغيرها من الأحداث السياسية التى تمت فى الدولة الإسلامية والتى يجمل فيها العبادى دور مصر قائلاً: «ولكن هذه الثورات إذا كانت قد تمخضت عن شىء فإنما تمخضت عن تحول خطير فى وضع مصر السياسى. لقد شعر المصريون بقوتهم وتنبه وعيهم القومى، فأخذوا يعملون على الاستقلال بشئونهم الداخلية على أقل تقدير. والدليل على ذلك أن أسرة عربية مصرية تعرف بآل السرى بن الحكم تولت أمور مصر اثنتى عشرة سنة، فكان ذلك تمهيدًا لاستقلال مصر عن الدولة العباسية وقيام الدولة الطولونية سنة ٢٥٤هـ».

وعن إسهام مصر فى الحركة الفكرية، فيقول: «ولكن ينبغى ألا تغمط مصر نصيبها من هذه الحركة، فالحق أن الفسطاط غدت بيئة علمية تذكرنا بالبصرة والكوفة، وأصبح جامع عمرو أشبه بجامعة تدرس بها علما الحديث والفقه، كما تدرس الآداب العربية. .».

وعن علاقات الدولة الإسلامية بغيرها من الدول غير الإسلامية يكتب العبادى فصلاً ممتعًا عن هذه العلاقات بين هارون الرشيد وشارلمان مؤكدًا تواجد هذه العلاقات، فيقول:

«ليس من شك فى أن هارون الرشيد وشارل الكبير هما رجلا العالم فى أخريات القرن الثامن الميلادى وبداية القرن التاسع، فالرشيد يمثل الشرق بمدينته المزدهرة أيامئذٍ وعظمته التى بلغت أوجها. وشارل الكبير أو شارلمان كما درج المؤرخون علىٰ تسميته يمثل الغرب، الآخذ فى الاستقرار على أثر نزوح القبائل الجرمانية من مجالاتها فى أوربا الوسطى إلى أملاك الدولة الرومانية الغربية، والآخذ بتلك الأسباب التى جعلت فيه فى النهاية باعث دول أوربا الوسطى والغربية الحديثة بأوضاعها السياسية والاجتماعية والثقافية المعروفة.

وليس من شك فى أن كلا من العاهلين العظيمين قد سمع بالآخر على أقل تقدير، فقد كانت بغداد منتجع السياح والتجارة والوافدين إليها من مختلف الأقطار، وكان لا يخلو الأمر من أن يجرى على لسان هؤلاء الوافدين ذكر العاهل الفرنجى الكبير، وكانت مدينة آخن هى كذلك مقصد السياح والتجارة واللاجئين السياسيين الواردين من الشرق. فكان لا يخلو الأمر من أن يتحدث هؤلاء وهم بعاصمة الدولة الفرنجية عن الحروب الناشئة بين بيزنطة والعباسيين، وعن أخبار الأمويين المتغلغلين على الجزيرة الأسبانية، وعن التغير المؤثر الذى أحرزه الرشيد على الجيوش البيزنطية فى هضاب آسيا الصغرى وأوديتها وسهولها.

كل ذلك من شأنه أن ينقل إلى كل من العاهلين عن الآخر صورة مبهمة

غامضة. ولكن ترى هل كان الأمر مقصوراً على مجرد السماع، أم هل يتعداه إلى قيام علاقات سياسية أو ودية بينهما، كما ينتظر أن تكون الحال بين رجلين توزعا بينهما أمر المشرق والمغرب لعهدهما؟

أما المصادر العربية فتسكت عن ذكر علاقة بين هارون الرشيد وشرلمان سكوتًا مطلقًا، فى حين أن المصادر الفرنجية القديمة تشير صراحة إلى اشتباك العلاقة السياسية والودية بينهما، وتبدى القول فى ذلك وتعيده، فتاريخ المملكة الفرنجية وسيرة الإمبراطور شرلمان والمنظومة المعروفة «ببويتا ساكسو» كلها تروى نبأ ثلاث سفارات وهدايا تبودلت بين شرلمان والرشيد. وكان شرلمان هو البادئ فى كل منها بالاستفسار، ولم يزد الرشيد على أن كان يرد على السفارة بسفارة وعلى الهدية بهدية مثلها».

وفى نفس كتاب «صور وبحوث من التاريخ الإسلامى» نجد اهتمامًا بالحوادث التاريخية التى ساعدته على نمو اللغة وانتشارها. ونفس هذا الفصل نجده منشوراً بعد اختصار وإضافة لمحاضرة للعبادى بمجلة مجمع اللغة العربية، كان قد ألقاها فى الجلسة السابعة من جلسات مؤتمر المجمع فى الدورة التاسعة عشرة، وفى هذه المحاضرة يقول: «ولقد نظرت فى حوادث التاريخ الإسلامى فوجدت أن ثلاثة منها كانت ذات تأثير عميق بعيد المدى فى نمو اللغة العربية وانتشارها العظيم. أول هذه الحوادث: تعريب الدواوين على عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦هـ)، والثانى: أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١م) بتدوين الحديث النبوى، والثالث: أمر الخليفة المأمون العباسى (١٩٨ ـ ٢١٨هـ) بنقل كتب الفلسفة من اليونانية إلى العربية».

ويستطرد العبادى فى الحديث عن كل واحدة من هذه الأحداث الثلاثة. مبينًا الباعث عليه، وكيف تم، وأثره فى اللغة العربية وانتشارها. ليختم حديثه بمقارنة بين ما حصل منذ أكثر من ألف سنة وما هو حاصل بالفعل، بالإضافة إلى نهضة اللغة العربية فى العلم الحديث.. كل ذلك فى دراسة شيقة وممتعة.

وعن أهمية دراسة تاريخ المغرب العربى والأندلس ينبه عبد الحميد العبادى فى كتابه «المجمل فى تاريخ الأندلس» قائلاً: «لا يستطيع مؤرخ أن يهمل تاريخ المغرب والأندلس فإن لهذا التاريخ اعتبارًا من ناحيتين.. من ناحية التاريخ الإسلامى الخاص، ومن ناحية التاريخ العام.

فمن ناحية التاريخ الإسلامى.. كان المغرب والأندلس مسرحًا لدول إسلامية اشتركت فى تكييف الحضارة الإسلامية الخاصة. وقامت دول وخلافات فى المغرب وفى الأندلس مثلت شقًا من العالم الإسلامى، الذى نستطيع أن نعدّه ـ وخصوصًا بعد قيام الدولة الفاطمية بمصر ـ يتكون من شقين متميزين، هما المشرق الذى كانت تسيطر عليه الخلافة الفاطمية وشمال إفريقيا سيطرة روحية وسياسية، ينضاف إليه الأندلس الذى كانت تسيطر عليه الدولة الأموية.

ثم إن الأندلس تميزت بتاريخ وظروف خاصة لا يستطيع مؤرخ يدرس التاريخ الإسلامى أن يهملها.. فدارس التاريخ الإسلامى يتعين عليه أن يلم بشقى العالم الإسلامى حتى يستطيع أن يزاوج بين الحضارة الإسلامية فى ركنى هذا العالم الفسيح.

هذا من ناحية.. أما من ناحية التاريخ العام، فإن المغرب الإفريقى والأندلس كانت مراكز اتصال بين العالم الشرقى وما فيه من حضارة ونظم، والعالم الغربى وما يسوده من عقائد ونظم. والعرب حين فتحوا المغرب الإفريقى وتطرقوا منه إلى الأندلس، وثبوا على أجزاء من العالم الأوربى، فاحتلوا إسبانيا، ثم احتلوا صقلية، ونزلوا فى الجنوب، وعبرت جيوشهم جبال البرانس ونزلت أرض غاليا (فرنسا) ودارت بينهم وبين الفرنجة معارك حامية. كل هذه كانت نقط اتصال احتك بها العرب بالعالم الأوربى. ولابد أن شيئًا كثيرًا من الحضارة العربية والنظم الشرقية وصلت إلى أوربا عن هذا الطريق.

ثم إن المغرب الإفريقى والأندلس اشتركا فى الصراع الذى كان دائرًا بين المسلمين من ناحية، والبيزنطيين من ناحية أخرى، حتى لنجد الفاطميين يتحركون

إلى المشرق مدفوعين فى غزوهم لمصر بعامل إنقاذ دار الإسلام من خطر الروم البيزنطيين، إلى جانب الأسباب الأخرى التى كانت قائمة فى نفوسهم.

فاتصال تاريخ المغرب والأندلس بالتاريخ العام اتصال قوى، من ناحية الحضارة وتفاعلها، ومن ناحية الصراع العام بين الشرق الإسلامى والغرب المسيحى. فمن هنا نرى أن تاريخ هذا الجزء من العالم تاريخ يهم المؤرخ أن يدرسه، وليس له عذر فى أن يتجاهله أو يغفله».

وعن انتشار الإسلام فى العالم[١٥] يرى الأستاذ عبد الحميد العبادى متفقاً فى ذلك مع الدكتور محمد مصطفى زياد والدكتور إبراهيم أحمد العدوى ـ فى أن للتبادل التجارى والطرق الصوفية أثر فى دخول الإسلام إلى السودان.

وهناك ثلاثة طرق رئيسية سارت فيها القوافل التجارية من شمال إفريقيا إلى السودان منذ العصور الوسطى حتى بداية العصور الحديثة.

فالطريق الأول: يمتد من تلمسان بمراكش إلى «تمبكتو» على نهر النيجر فى السودان الغربى، والطريق الثانى: يبدأ من تونس ويتجه إلى «كانو» بالسودان الأوسط. أما الطريق الثالث: فإنه يمتد من مصر إلى السودان الشرقى، ولم يكن نهر النيل صالحًا للملاحة فى جميع شهور السنة أو فى كل أجزائه بسبب الجنادل التى تعترض مجراه.

وعن انتشار الإسلام فى الشرق الأقصى.. تطالعنا صفحات تذكر أن التجارة كانت عاملاً فى ذلك، حيث مهدت لانتشار الإسلام فى الشرق الأقصى. إذا امتدت تجارة المسلمين إلى شواطئ من الهند والهند الصينية والصين، وتوغلت الدولة الإسلامية فى جوف آسيا، واشتملت على أجزاء من بلاد الهند، والمناطق الآسيوية المتاخمة لأطراف الصين، وهيمنة على الطرق التجارية الرئيسية فى آسيا ووصل التجارة المسلمون منذ القرن الثامن الميلادى (الثانى الهجرى) إلى الصين وجزء من الهند الشرقية وغيرهما من بلاد الشرق الأقصى، للحصول على مواردها الطبيعية من الحرير والكافور والقرنفل وخشب العود، والصندل وجوز

الطيب وجوزة الهند والورق وحمل التجار معهم إلى هذه البلاد فى مقابل هذه السلع بعض منتجات الدول الإسلامية، مثل: السكر والزمرد والقطن والأقمشة والعاج وغيره من صناعات مصر والعراق والشام.

وللفتوح المغولى أثر فى انتشار الإسلام، وفى ذلك نقرأ: «تمخضت حركات المغول فى أواسط آسيا فى القرن الثالث عشر الميلادى عن حركة هجرة هائلة اندفع فيها المسلمون من أواسط آسيا على اختلاف قومياتهم من عرب وفرس وأتراك إلى الإمبراطورية الصينية. واشتغل كثيرٌ من اللاجئين المسلمين بالتجارة على حين احترف بعضهم الجندية. واشتغل بعضهم الآخر فى وظائف الإمبراطورية. ثم لم يلبث أن علا شأن أولئك المسلمين، ولاسيما بعد أن لمس الخانات المغول الذين سيطروا على الصين مهارتهم فى إدارة البلاد، ومعرفتهم بشئون التجارة».

وعن الصلة بين الشعر والتاريخ السياسى يكتب العبادى بحثًا ضافيًا[٨] يلقيه فى الجلسة الأولى لمؤتمر المجمع اللغوى فى دورته الحادية والعشرين، فيقول: «وأبدأ حديثى بتحديد القرن الأول الهجرى. فهو من الناحية الرياضية يبدأ من العام الأول للهجرة، وينتهى لسنة ٩٩ أو سنة ١٠٠ للهجرة. ولكن العصور التاريخية لا تلتزم فى تحديدها الدقة الحسابية، وإنما تلحظ فيها التيارات العامة سياسية كانت أو اجتماعية أو غير ذلك، فتمد حدودها أو تقتصر على حسب ما يكون من تلك التيارات. فالقرن التاسع عشر الميلادى مثلاً يبدأ فى نظر المؤرخين المحدثين من قيام الثورة الفرنسية فى أخريات القرن الثامن عشر، وينتهى بالحرب العالمية الأولى التى وقعت فى العقد الثانى من القرن العشرين.

وعلى هذا الاعتبار أحدد بداية القرن الأول الهجرى، بهجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة، وأختمها بانتهاء الدولة الأموية فى سنة ١٣٢هـ، إذ انتهى عالم وقام عالم جديد فى الدولة الإسلامية.

وليس من شك فى أن القرن الأول الهجرى بحدوده التى ذكرتها، هو أهم

عصور التاريخ الإسلامى على الإطلاق، ففيه اكتملت الدعوة الإسلامية، وفيه وضع أساس الدولة الإسلامية، وفيه نمت الدولة الإسلامية واتسعت اتساعها المشهور، وفيه عظمت تلك الدولة، وفيه وضعت أصول الحضارة الإسلامية من اشتغال بالعلم، وجمع للسنة، وتدوين للغة، وابتداء للفنون الإسلامية. فلا غرو أن يكون ذلك العصر، بمثابة العصر الإسلامى الممتاز إلى جانب كونه العصر الإسلامى الأول.

أية ثورة، وأى تغير وتحول، وأى روح متدفق فياض شمل ذلك كله وتغلغل فى ذلك كله؟! والذين قاموا بهذه الثورة الهائلة ووجهوها وجهتها هم العرب. وهذا من أعجب العجب!.. أمة أمية لم تكن فى جاهليتها يجمعها نظام ولم تكن تجد رفاهية عيش، بل تعيش فى بوادى الجزيرة وصحاريها عيشة الضنك والضيق.. فما هى إلا أن نفخ فيها الإسلام روحه حتى انبعثت خلقًا جديدًا تؤمن بالمثل العليا وتفتح العالم شرقًا وغربًا، وشمالاً وجنوبًا.. حتى اجتمع لها ملك ضخم لم يجتمع لدولة واحدة من قبل ولا من بعد ـ وكان العرب هم الذين أداروا هذا الملك، وهم الذين ساسوه.

والعربى القديم تشغفه السياسة وتستهوى فؤاده، وقد يكون مرجع ذلك بالنسبة لأهل البداوة منهم.. مارس الديمقراطية التى كانت تستمتع بها القبيلة العربية القديمة حيث الزعامة والرياسة وأبوة حانية رقيقة لا مسيطرة ولا مستبدة، وحيث ملأ القبيلة أو ناديها. ويضم مشيختها ذوى السن والتجارب من رجالاتها. ويجتمع حول نار القرى من آن لآخر للطعام والاستدفاء والتشاور فى أمور القبيلة من سلم أو حرية أو نجع فى طلب ماء أو مرعى أو غارة تشن أو حلف يعقد.

أما بالنسبة لسكان الحواضر فى الحجاز واليمن وأطراف الجزيرة فإن اشتغالهم بالتجارة وهو السبب فى ميلهم إلى السياسة. فالتجارة كانت تقتضى منهم أن يكونوا على علم بأحوال الدول المجاورة لهم، والتى يتجرون فى أسواقها، إن سلماً هى أم حرباً؟ رواجاً أم كساداً؟ وحال الطرق التى تمر منها قوافلهم: أمأمونة

هى أم مخوفة؟ ولذلك كانوا يعقدون المعاهدات أو الإيلاف الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم، وقد يقع الحدث السياسى الخطير فى داخل الجزيرة أو خارجها، فتتجاوب أرجاء الجزيرة ذكره. فانتصار اليمن على الأحباش وطردهم لهم من بلادهم قد هز الجزيرة هزّا بحيث تقاطرت وفود القبائل تهنئ البطل اليمنى «سيف ابن ذى يزن» بانتصاره العظيم. ثم إن انتصار ربيعه على الفرس فى يوم ذى قار. تردد صداه فى البوادى والحواضر. وقد ورد فيه قوله ﷺ: (هذا أول يوم أنصفت فيه العرب من العجم، وبى نصروا)، أو كما قال: (إن انتصار الفرس على الروم فى الشام جعل قريشًا تغتبط لانتصار الفرس)، فنزل القرآن يقطع شماتتهم، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ ﴾[١٦] وقد كان ما أنبأ به القرآن من غلبة الروم على الفرس. وقد كانت قبائل العرب قاطبة ترقب نتيجة الصراع الرهيب بين الجماعة الإسلامية الناهضة وقريش. فلما تبين لها، رجحان الجانب الإسلامى بفتح الرسول مكة عنوة، بادرت فأوفدت وفودها إليه معلنةً إسلامها ودخولها فى طاعته: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾[١٧].

وكما كان العربى القديم تشغفه السياسة وتستهوى فؤاده للأسباب التى قدمناها. فإنه من ناحية أخرى كان شاعرًا. يقول الشعر ويهتز للفاخر البليغ منه أى اهتزاز. وقد يكون هذا عجبًا من العجب! فنحن أهل العصر الحاضر قد نبتسم ابتسامة العجب إذا قيل لنا أن الوزير الفلانى أو السفير الفلانى يقرض الشعر، فصار اجتماع السياسة والشعر فى رجل واحد أمرًا يثير دهشتنا وعجبنا. وذلك لأننا باعدنا بين الفنين مباعدة كبيرة، فى حين أن العربى القديم وصل بينهما وجعل كل منهما يمد الآخر ويغذيه..».

●●●

## الهوامش

(١) راجع مقدمة كتابى «الدولة الإسلامية وحضارتها»، و«مجمل فى تاريخ الأندلس».

(٢) المجمل فى تاريخ الأندلس ـ عبد الحميد العبادى ـ مقدمة للدكتور جمال الدين الشيال ص١٦.

(٣) مجلة مجمع اللغة العربية عام ١٩٥٥ ـ مقال للأستاذ إبراهيم مصطفى ص٢٢.

(٤) المجمل فى تاريخ الأندلس ـ عبد الحميد العبادى ـ مقدمة إبراهيم الشريف.

(٥) المرجع نفسه ـ مقدمة الدكتور جمال الدين الشيال ص١٧.

(٦) المرجع نفسه ـ مقدمة إبراهيم الشريف.

(٧) صور وبحوث من التاريخ الإسلامى ـ عبد الحميد العبادى.

(٨) المرجع نفسه ص.

(٩) الدولة الإسلامية وحضارتها ـ عبد الحميد العبادى ـ مصطفى زيادة ـ إبراهيم أحمد العدوى.

(١٠) سورة الزخرف ـ من الآية ٥١.

(١١) سورة يوسف ـ من الآية ٩٩.

(١٢) سورة يونس ـ من الآية ٩٣.

(١٣) سورة الدخان ـ الآيات ٢٥ - ٢٨.

(١٤) سورة يونس ـ من الآية ٨٨.

(١٥) مجلة مجمع اللغة العربية الجزء ١١ ص٢٣ وما بعدها.

(١٦) سورة الروم ـ الآيات ١ - ٣، من الآية ٤.

(١٧) سورة النصر.

●●●